هل يجب عليك ألا تكذب - أو أن تكذب؟

أحب الحقيقة، وأعتقد أن الإنسانية بحاجة لها. لكن من المؤكد أنها بحاجة أكثر إلى الكذبة التي تجاملها وتجود عليها بالمواساة وتجعل لها أملاً لا نهاية له.

أناتول فرانس

من يملك سراً غالباً ما لا يجد بداً من الكذب. ويمكن أيضاً أن يكتفي أحياناً بالصمت وعدم البوح بشيء بالإبقاء عليه حبيس الشفتين. لكن في أكثر الحالات لا يمكن حفظ الأسرار إلا بكذبات هادفة وخداع مقصود. فالكذبة والسر هما أخوان، فالسر من دون كذبة عادة ما يكون غير ممكن، وبالعكس، فالكذبة غالباً ما تحمي السر. وكما كشف الباحث في قضايا الكذب والفيلسوف ديفيد نيبرغ David Nyberg. يمكن لهذين الأخوين أداء عملهما بأسلوبين مختلفين؛ إذ يمكنهما التصرف إيجاباً أو سلباً:

- يكون الخداع إيجابياً عندما يسهم المرء في خلق قناعة خاطئة ويصب جهده على حمل إنسان آخر على الاعتقاد بصحة قناعة خاطئة مثل («أنا لا أكذب» أو «لقد قطعت علاقتي مع أنّا» أو «أنا أحبك»).

obeikan.com

- ويكون الخداع سلبياً عندما يجعل المرء إنساناً آخر يشكّل رأياً خاطئاً (تنطلق الزوجة من القناعة بأن زوجها يقوم بساعات عمل إضافية) أو الاحتفاظ برأي خاطئ (بما أنها لا تسأل، لا يعطي أي إيضاحات أخرى).

سواء كان سلباً أو إيجاباً، يبقى الخداع خداعاً، وتبقى الكذبة كذبة. بالنسبة للكثير من حملة الأسرار تلقي هذه الحالة بثقلها بشدة عليهم وتسبب لهم تأنيب الضمير، لأن الوصية المسيحية «لا تكذب» هي في لحم ودم أكثر الناس حتى ولو كانوا غير متدينين. فالحقيقة تعد أمراً جيداً ومنشوداً والكذب سيّئاً ومكروهاً.

والوصية الأخلاقية التي تقول «لا تكذب» أو على نحو أدق: «لا تشهد زوراً على الأقربين» لم تنتشر فقط عبر العقيدة المسيحية، بل تلقت أيضاً دعماً كبيراً من جانب الفلاسفة. فعلى سبيل المثال لا يدع أوريليوس أوغوستينوس Aurelius Augustinus مجالاً لتبرير الكذب. حتى لو كان بمقدور المرء إنقاذ حياة إنسان آخر بكذبة، عليه أن يلتزم جاني الحقيقة. يقول: «بما أن الحياة الأبدية تضيع بالكذب، فعلى المرء ألا يكذب لمجرد إنقاذ حياة واحدة فانية». كذلك يصف عمانوئيل كانت Emanuel Kant الصدق والإستقامة بأنها «واجب لا بد منه» وينشد حالة كتلك التي يدعو إليها أوغوستينوس. وإجابة عن السؤال: «هل يحق لي أن أكذب على قاتل يريد أن يعلم مني إن كان صديقي الذي يطارده، مختبئاً في بيتي؟» أجاب: «كانت» بالنفي القاطع؛ لأن الكذبة ستكون «جريمة بحق الذات» كما يصفها الفيلسوف. ولا توجد أي حالة على الإطلاق يمكن فيها «تبرير» مثل هذه الجريمة. أيضاً حتى عندما يعرض المرء حياة صديقه، بقول الحقيقة،

للخطر. فالصدق في الأقوال، التي لا يمكن للمرء أن يلف عليها، هو واجب معروف للإنسان ضد كل ما يمكن أن يسبب له وللآخرين ضرراً كبيراً.

كما يتخذ أيضاً ميشيل دومونتان Michel de Montaigne في مقالاته Essais موقفاً واضحاً ضد الكذب بقوله: «الكذب رذيلة شنيعة. وقد وصفه أحد القدماء في كل قباحته بالقول: إنه الدليل على أن المرء يستهين بالله في الوقت الذي يخاف فيه من الناس. وبصورة أكثر إقناعاً تظهر نذالة ودناءة وفظاعة هذه الرذيلة عندما ينحط تفكير المرء لدرجة الوقوف جباناً أمام الناس وشجاعاً أمام الله». ثم يتابع قائلاً: «لو كنا ندرك ثقل وشناعة هذه الرذيلة، لكنّا لاحقناها بالنار والسيف أكثر من ملاحقتنا لبقية الأفعال المخزية».

لقد تأثرنا بأقوال الفلاسفة ووصايا الكنيسة المسيحية وموقفها من الكذب. لكن هل الكذب حقاً يستحق هذه اللعنة كما يعلمنا الدين وتعلمنا الفلسفة؟ لماذا ينبغي علينا ألا نكذب؟ ألأن حياة المكذوب عليه تضيق على نحو غير مشروع؟ ألأنه يتألم وتُجرح مشاعره عندما يكتشف الكذبة؟ ألأننا نخشى أن نفقد مصداقيتنا نهائياً فيما لو اكتُشفت الكذبة؟ ألأنه يجب علينا عدم الكذب بكل بساطة لأن «حبل الكذب قصير» أو «لأن كذبة واحدة تجعل عشرين آخرين يعتمدون عليها» كما جاء في أحد الأمثال الإيطالية؟

لقد افتضح أمرك
فاقلع عن هذا العبث!
سيطول أنفك
فمتى سيتوقف عن النمو!
هذا ما يصاب به

كل من يكذب ويخدع دائماً
فإن لم تتوقف عن الكذب أيها الشقي
سيطول أنفك ليبلغ السماء

تحذير الساحرة الطيبة هذا للعبة الخشبية بينوشيو Pinocchio سمعته أجيال من الأطفال وفهمته جيداً. فمن يكذب ينمو له أنف طويل. ومنذ الصغر يُلقن الطفل قاعدة أن: الإنسان الطيب لا يكذب.

في الولايات المتحدة يعتمدون في التربية الأخلاقية للأطفال على الحكاية الآتية عن جورج واشنطن، أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية عندما كان في سن السادسة وأقدم على تحطيم شجرة كرز بفأسه الصغيرة. وتروى هذه الحكاية بأشكال مختلفة، وهذه واحدة مها:

مثال: قال له والده: «جورج، هل تعلم مَنْ الذي قتل شجرة الكرز الصغيرة والجميلة في الحديقة؟» وكان ذلك سؤالاً محرجاً. ترنّح جورج للحظة تحت ثقل وقع هذا السؤال لكنه لم يلبث أن عاد سريعاً إلى نفسه، فنظر إلى والده بوجهه الطفولي البريء الذي يشع منه السحر الذي يتجاوز كل حقيقة، وصاح بكل جرأة: «لا قدرة لي على الكذب يا أبي وأنت تعرف ذلك. أنا الذي قطعتها ببلطتي الصغيرة». فصاح والده بكل حنان: «تعال لأضمك إلى صدري يا ولدي الحبيب، هلمّ إليّ: جورج: يسرني أنك قطعت شجرتي لأنك عوضتني عنها بألف ضعف. فهذه البطولة لدى ولدي تساوي عندي ألف شجرة. ولو كانت أوراقها من الفضة وثمارها من الذهب الخالص». الظريف هنا أن هذه الحكاية الطريفة التي تحكى للأطفال في أمريكة لتقوية حبهم للصدق هي مختلقة كما يقول أستاذ الفلسفة ديفيد نايبرغ

«بذلك تعلم أطفال المدارس في أمريكة طوال أكثر من قرن قيمة الصدق عبر كذبة» والفكرة الأخلاقية من الحكاية كما يقول فايبرغ «أحياناً لا يكونوا صادقين عندما يفعلون ما يعدونه صواباً، وأن الخداع ليس دائماً بالأمر السيئ».

إن التفكير بالأبيض والأسود في حالة الشعر والحقيقة يبدو أنه ليس في مكانه المناسب. حتى مونتان، الخصم العنيد للكذب يعترف بأنه توجد بعض الحالات التي يمكن فيها تبرير الكذب «عندما أكون مثلاً في وضع يمكن فيه لكذبة مكشوفة أن تنقذني من خطر واضح مميت لست واثقاً إن كنت من القوة لدرجة أستطيع فيها مقاومة هذا الإغراء».

ليس فقط في حالة «خطر مميت» بل في حالات أقل دراماتيكية يكون من السهل جداً أن نقوّم الكذبة «بالخطأ» الواضح والصدق «بالصواب» البيّن. أو كما عبرّ الشاعر رالف فالدو امرسون Ralph Waldo Emerson بقوله: «الصدق جميل بلا شك، لكن كذلك الكذب أيضاً». وجهة النظر هذه تبناها قبله بزمن طويل أسقف القسطنطينية يوحنا كريسوستوموس (Johannes Chrysostomus 344-407). فلم يقف في طابور الذين يلعنون الكذب، بل رأى بأنه يجب البحث عن الأسباب التي تدفع المرء للكذب، بعدها يمكن الحكم فيما إذا كان سلوكه مجافياً للأخلاق أم لا. إن عبء الإثبات لا يقع على الكاذب، بل على ذلك الذي يلومه على كذبه. فهو الذي يجب أن يثبت فيما إذا كانت الكذبة قد اقترفت بدوافع سيئة.

فالكذب بحد ذاته هو أول الأمر شيء حيادي. ولا يصبح غير أخلاقي ومستهجن إلا إذا صدر عن نوايا غير شريفة. وهذا يعني، إن من يكذب؛

لأنه يريد أن يلحق الضرر على نحو مقصود بالآخرين، أو يحقق لنفسه مكاسب على حساب الآخرين، يجب التنديد به أخلاقياً. أما من يكذب لأسباب وجيهة من أجل الحفاظ على جوّه الخاص مثلاً، ولكي لا يتسبب بإيذاء الآخرين، وليكون مهذباً، أو لأنه يخشى من العقاب والإذلال، فإنه في هذه الحالات ليس إنساناً سيئاً وغير أخلاقي.

ويشير الفيلسوف لودفيغ ماركوزه Ludwig Marcuse إلى جانب مهم آخر بقوله إن بعض الكذب أكثر إنسانية وأخلاقية من الصدق. «هناك كذب محبب وصدق بغيض. . . فالكثير من الصراحة ليست سوى تكلّف وحشي. وكثير من الكذب دليل على الإنسانية». عندما نكذب لأننا نريد أن تحفظ أناساً آخرين من حقيقة غير رحيمة فما من شيء في هذا السلوك مستهجن. وقبل أن نكسر العصا على ظهر الكاذب أو الكاذبة يجب علينا التأكد بدقة والسؤال عن الأسباب التي قادت إلى الكذب، وأن نأخذ بالحسبان أيضاً نوايا ودوافع الكاذب.

الكذب من أجل المراعاة

ماذا كان الدافع الذي جعل «اولا» تقرر ألا تخبر والدتها العجوز عن حقيقة ما جرى لحفيدها؟

× مثال: تعيش والدتي منذ عدة سنوات في بيت للعجزة، عمرها الآن 88 عاماً وفي غاية الوهن والضعف. فكيف سأقول لها إن حفيدها، ابن أختي الكبرى «توبياس» قد أقدم على الانتحار؟ لم أكن قادرة على ذلك. كان من واجبي أن أخبرها بأن الفتى يعاني اكتئاباً شديداً، وأنه بسبب ذلك كان

يخضع لعلاج سريري. وأنه ألقى بنفسه من الطابق الرابع في المستشفى. والحمد لله كانت أختي، وهي في قمة نكبتها من التعقل بمكان بحيث أيدت فكرتي. فقررنا ألا نأتي أمام الوالدة على ذكر انتحار توبياس.

لقد كذبت «اولا» لدافع إنساني وبدافع العطف. فقد أرادت أن توفر على والدتها العجوز هموماً وآلاماً هي في غنى عنها. «إن كنت قد كذبت مرة فإن ذلك كان بدافع الحب» هكذا قال نيتشه على لسان زرادشت. فبعض الصدق يمكن أن يكون أسوأ من الكذب. كذلك نجد مثلاً شعبياً من القوقاز يقول: «من يقول الصدق عليه أن يسرج حصانه» فعندما يعلم المرء، أو يتناهى إليه، بأن أحداً لا يستطيع أن يطيق الصدق، تكون الكذبة غالباً هي الطريق الإنساني. وهذا ما يجب على المرء أن يراعيه عندما يؤكد شخص لآخر بقوله أريد أن أعرف الصدق دائماً!

جعلته يُقسم أن يقول الصدق دائماً ولا شيء إلا الصدق
ووعدته بأنني لن أتضايق منه
مهما كان وقعه صعباً ومهما كان قاسياً ومهما كان مراً
فكيف له أن يصدقني؟

تصف الكاتبة يوديت فيورست Judith Viorst في قصيدة لها بعنوان: «لا شيء إلا الصدق» الأزمة التي يقع فيها الكثير من البشر. لا يريدون أن يكذب عليهم أحد، يريدون معرفة الحقيقة، لكن لا يسألون أنفسهم فيما إذا كانوا على استعداد لتحملها. المحبون لا يعدّون أنفسهم غالباً بمجرد زرقة السماء، بل بالصدق الأبدي إلى جانب الحب الأبدي. لن يكون بيننا أي كذب. هكذا يعدون أنفسهم. سنكون دائماً صريحين مع

بعضنا بعضاً ولا نقول لبعضنا سوى الصدق. فهل يتوقعون فعلاً بأن الآخر سوف لن يحيد البتة عن الصدق؟ وهل يتوقع أحدهما من نفسه الحفاظ على الصدق والاستقامة على الدوام؟ ومن يكون صادقاً مع نفسه عليه أن يعترف: لا يقول المرء الصدق دائماً؛ لأنه لا يريد أن يقول الصدق دائماً. وبالقدر نفسه يريد المرء دائماً معرفة الحقيقة بأي ثمن: ويقال في العامية الألمانية: «لا يهمني أمر لا أعرفه» لأنني لو عرفته فربما لن أنام قرير العين.

وقد كان على «إلكه» أن تمر بهذه التجربة القاسية:

مثال: تعاهدنا، صديقي وأنا، منذ بداية علاقتنا على ألا يكذب أحد منا على الآخر البتة. أردنا أن نكون صريحين تجاه بعضنا بعضاً. وبعد عدة سنوات تأزمت العلاقة بيننا. وأصبحت رغبتي بالنوم مع صديقي نادرة، وبناء على العهد الذي قطعناه على أنفسنا فقد أخبرته بذلك. بدا أنه ممتن لصراحتي وحاول أن يفهم تراجعي ويتقبله.

وذات يوم طلب مني أن نجري حديثاً. أراد أن يخبرني فقط بأنه تقدم بإعلان للتعارف لأنه يفتقد ممارسة الحياة الجنسية، ولذلك يبحث عن امرأة تعطيه ما منعته عنه. وادعى بأن عليّ ألا أخاف؛ لأنه لن ينفصل عني. لكن هذا الخبر وقع عليّ وقع العصا ولم أستطع مواجهة الموقف. ولكن عندما قال لي فيما بعد إنه غير قادر على إقامة علاقة جنسية مع أي من النساء اللواتي أعطين إجابة عن إعلانه، وأنه يحبني جداً ولكن كان قد سبق السيف العزل. كم كنت أتمنى لو أنه لم يكن بهذه الصراحة. أردت لو أنه احتفظ بموضوع الإعلان لنفسه. والآن تنتابني

المخاوف أن يفعل ذلك ثانية. وأنا ألعن أيضاً صراحتي معه. هل كان فعلاً من الضروري أن أكون صريحة معه للقول إنه لم تعد لدي الرغبة بممارسة الجنس معه؟ ألم يكن الأجدر بي أول الأمر أن أوضح لنفسي ما الذي يكمن خلف عدم رغبتي هذه؟

إن الكذب أو عدم الصدق في المكان والزمان المناسبين يسمح بالتعامل الحضاري بين الناس ويحفظ أرواحنا. فمهما كان الصدق محموداً، ومهما كان جميلاً بحد ذاته، إلا أنه يمكن أن يكون جارحاً وهداماً ومدمراً للثقة.

ويرى المختصان في علم النفس كلاوس فيدلر وجانيت شميد، اللذان سخّرا أنفسهما كلياً للبحث العلمي في موضوع الكذب، أنه «من الجدير بالملاحظة بأن الكثير من حالات مجافاة الصدق تعود لدوافع تخدم المجتمع؛ أي إنها تخدم مراعاة الآخرين وأخذ الأمور في الحسبان. يمكن أن نقول إن التعبير الواقعي الذي لا يعرف حدوداً وسطاً يمكن أن يتفق مع جميع ردود الفعل الصريحة ذات النظم الثقافية الأساسية وأن «التعامل الدقيق مع الصدق يمثل واحداً من أهم أهداف المجتمع الإنساني».

يقف الناشر والخبير في علم الأخلاق «راينر ارلينغر» -الذي يجيب بانتظام على أسئلة تتعلق بالأخلاق في المجلة الصادرة عن صحيفة زود دويتشه تسايتونغ Süddeutsche Zeitung- دائماً وأبداً ضد الكذب.

مع ذلك لا يسعه إلا أن يستحسن الكذب في حالات معينة. في هذه الحالة على سبيل المثال حيث كتبت إحدى القارئات (مجلة SZ العدد 42 عام 2006):

«كنت قبل مدة مدعوة إلى حفلة زواج أصدقاء مقربين. وفي هذه الحفلة لم أشعر بالراحة البتة. فالجو العام كان بارداً جداً ولم تكن كمية الطعام كافية. كانت الأحاديث متكلفة والمكان كئيب. ويبدو أنني لم أكن الوحيدة التي لاحظت ذلك؛ لأن كثيراً من الأصدقاء غادروا الحفل في وقت باكر نسبياً. العروسان فقط كانا في قمة الحماس للحفل، وتحدثا لأيام طويلة عقب ذلك بكل سعادة وحبور عن الحفل. وإجابة عن سؤالهما لي فيما إذا كانت الحفلة قد أعجبتني عبرّت -بعكس رأيي الحقيقي- على نحو إيجابي، لكي لا أجرح شعورهما. فهل كان تصرفي صحيحاً؟

كان لا بد للسيد راينر ارلينغر من أن يعطي السائلة الحق. وكان أسهل عليه أن يقول: «إن الكذب مستنكر» ثم يغدق عليها فيضاً من الاقتباسات عن أسماء مشهورة. لكن يبدو له أن ذلك غير مجدٍ في هذه الحالة لأن «الصدق قيمة سامية، لكنه ليس القيمة الوحيدة. فإلى جانبه هناك أيضاً الوصية بعدم جرح مشاعر الآخرين. وهذا -برأيي- أهم في هذه الحالة».

الكذب من أجل المحافظة على الذات

أدرك فيلهلم بوش قبلاً «أن أحسن الناس يضطر للكذب أحياناً، حتى بكل سرور في بعض هذه الأحيان» وهذا يعني أن الكذب ظاهرة عادية جداً، ولا تقتصر على البشر فقط؛ إذ إن الكثير من الأنواع الحيوية الأخرى يمكن أن تتخذ أشكالاً وأوضاعاً مختلفة لخداع أعدائها. ويقول المؤلف «جيريمي كامبل» Jeremy Campel «كثير من الكائنات الحية الآن كان يمكن أن تكون قد انقرضت لو أنها تربّت دائماً على الالتزام بالصدق وحده. فالصورة الزائفة تدخل في عداد حركة التطور. فزهر الأوركيد

تحاكي مظهر الحشرات المؤنثة، وبهذا الأسلوب تغرر بتلك المذكرة من أجل التلقيح. وتتظاهر بعض أنواع الطيور بأنها عازبة فتخفي شريكاتها وتدعو إناثاً لا علم لها بذلك إلى التلقيح من العازب المفترض. وهناك نوع من الأسماك الرخوية في المناطق الاستوائية يخدع بقية الأسماك بحيث يموّه نفسه ليظهر بأنه سمك تنظيف، أي يقضي على الطفيليات. وبيوض طائر الوقواق تشبه بيوض الطائر الذي يضع فيه الوقواق بيضه.

كما أن القرود تعرف طرقاً للخداع؛ إذ يمكنها التعبير عن عدم الاهتمام وصرف اهتمام الآخرين عن وعي وعبر سلوك محايد تعطي انطباعاً خاطئاً وأشياء أخرى كثيرة. فهناك دراسة أجريت على فصيلة من القرود تدعى «ليمور» تثبت بأسلوب مؤثر بأن لها قدرة إدراكية مدهشة تشترك فيها مع الشمبانزي والإنسان. حيث تستطيع أن تخدع ما حولها. فالباحثة أميلي جنتي من جامعة أندروز في سكوتلاندا علمت ثلاثة قرود من هذه الفصيلة كيف تشير إلى الفنجان الذي يخفى تحته حبة زبيب من أصل فنجانين. كانت حبة الزبيب مخفية عن أعين القرود الذين تم تدريبهم طويلاً حتى استطاعوا تحديد الفنجان الصحيح. وبعد أن نجحوا في 80% من الحالات جاءت مشرفة ثانية على التجربة ترتدي مريلة بيضاء واقتربت من القرد بكل لطف حالما تم إخفاء الزبيبة. وضعت المدربة الثانية يدها بين الفنجانين وانتظرت إشارة القرد إلى مكان وجودها. وفي كل مرة كان يحسن فيها الاختيار، كانت تعطيه المدربة الثانية حبة زبيب مكافأةً. وإذا ما أخطأ تحجبها عنه. وفي صيغة ثالثة للتجربة دخل اللعبة رجل فظ، يرتدي ثياباً سوداء ويضع نظارة شمسية

وقبَّعة على رأسه. فإذا ما أشار القرد إلى الفنجان الصحيح، تظاهر الرجل بأنه هو الذي يتناول الزبيبة وليس القرد، الأمر الذي أثار غضب أحد القرود؛ إذ أعطى إشارات غاضبة وأشار إلى الفنجان الآخر الذي لا يخفي تحته حبة الزبيب. وأحدهم لم يشر لا لهذا الفنجان ولا لذاك، أما الثالث فقد امتنع نهائياً عن المشاركة بل حدق في أرض الغرفة.

لكن القردة الثلاثة استطاعوا تحديد الفنجان الصحيح حالما عادت مشرفة التجربة المتعاونة إلى المشاركة. ومن ثم فقد اتضح للسيدة أميلي جينتي وزملائها، بالرغم من قلة عدة المشاركين في التجربة الحيوانية، بأن هذه الفصيلة من القردة تجيد مناورات الخداع. إن ما تستطيع فعله هذه القرود معروف قبلاً عند القطط. وكما يعرف كل محب لهذه الخلان العنيدة فبعض القطط تموء طويلاً على الباب حتى ينهض الإنسان عن مقعده الوثير ليطلق سراحها ويدعها تخرج. لكنها لا تفكر على الإطلاق بالخروج إلى البرية، فليست هذه رغبتها، بل كثيراً ما تقفز بسرعة الريح إلى المكان الذي كان يجلس فيه السيد أو السيدة قبل لحظات. لقد خدعت مالكها وضللته عن رغباتها الحقيقية؛ لأنها لم تكن تريد الخروج، بل كل ما تريده هو أن تأخذ مكان «ولّي نعمتها».

وحقيقة أن الخداع والكذب نلقاه دائماً في الطبيعة يستنتجها المؤلف جيريمي كامبل Jeremy Campell «لا مناص على الإطلاق من خِدَع الإنسان لأنها متأصلة في تركيب أجسادنا».

يُستخدم الخداع في عالم الحيوان والنبات من أجل حفظ البقاء. أما عند الإنسان العاقل Homo sapiens فيتعلق الأمر في بعض الحالات، إن

لم يكن بالحفاظ على الوجود البيولوجي، فبالوجود الاجتماعي، عندما يستخدم الكذب والخداع.

أحياناً يضطر المرء أن يعمد إلى الكذب للدفاع عن نفسه أمام قوة هائلة، ضد الاضطهاد وضد ضعفه. فالكذبة تمنح الضعفاء قوة يستخدمونها ضد السيطرة المهيمنة وضد القوة.

ويصف الفيلسوف لودفيغ ماركوزه القيمة التي تحتلها الكذبة، ولا سيما بالنسبة لأولئك الذين يُعدون ضعافاً في المجتمع. فبالنسبة له يعتبر أن «الاضطهاد هو أب الكذب». فمن لا يملك سلاحاً آخر، نتيجة وضعه الاجتماعي، يستطيع أن يستخدم الكذب إجراءً دفاعياً ليتحرر من دور المغلوب على أمره، على الأقل من هذه البوابة الخلفية. «عندما لا يجد الإنسان لديه القوة الكافية للدفاع عن نفسه بقبضة يده، فإن لديه ما يكفي من القوة للإفلات عبر الكذب. «فالكذب هو سلاح من لا سلاح في يده» حسب ماركوزه.

ومع أنه يرى خطر إمكانية ممارسة العنف بالكذب والخداع، لكن الجانب الإيجابي هو الغالب حسب رأيه. «فإن كان الكذب أحياناً يمكن أن يكون جوراً. إلا أنه -وإلى درجة أكبر- يشكل العكس تماماً، أي تحرراً من الجور» ويتابع قائلاً «. . . بالكذب لا تقل مساحة الحرية دائماً بل في أغلب الأحيان تزيد» ويلعب كتمان السر دوراً محورياً -بالنسبة لماركوزه- في كل شكل من أشكال المقاومة.

فمن يستطيع أن يكتم شيئاً، يملك القدرة على التحكم بما يجوز للآخرين معرفته عنه وبما لا يجوز. فمن لا يستطيع أن يتخذ قراره مثلاً:

المواطنون في دولة تخضع للرقابة على الأفراد فهو في عداد من لا حول لهم ولا قوة، وعليه في ظروف معينة أن يحسب حساب الملاحقة عندما لا يستطيع الحفاظ على سر.

ففي ظل نظام ديكتاتوري، كما كتب أستاذ الفلسفة باسكال ميرسيه Pascal Mercier في روايته «قطار الليل في لشبونة» هي مسألة حياة أو موت «أن يجيد المرء الكذب» فمن لا يحيط نفسه بسر يعيش دون أي حماية.

لكن أيضاً في المجتمعات الديمقراطية يمكن أن يكون الحفاظ على السر يخدم وجهاً من وجوه المقاومة والمحافظة على الذات. والمثال على ذلك هي بيوت النساء. فهي تحتفظ بعنوان الساكنات سراً من أجل حمايتهم.

فالأزواج الذين يتّسمون بالعنف لا يعلمون أين تقيم زوجاتهم. وفي هذه البيوت يمكن للنساء أن يفكرن ملياً كيف سيبدو مستقبلهن.

وليس فقط النساء اللواتي يعانين سوء معاملة الرجال بحاجة إلى الحماية التي يوفرها كتمان السر. ففي حالة أخرى مختلفة يتضح كم هو مهم بالنسبة لأناس في مواقف ضعف أن يكتموا شيئاً عن الأقوى منهم ويتغلبوا عليهم. وقد نشرت وكالة الصحافة الألمانية هذا الخبر عام 2002:

«يحق للمرأة أن تكذب في إجابتها عن سؤال حول إذا ما كانت حاملاً عند إجراء فحص مقابلة تعيينها في وظيفة. وحسب حكم أصدرته المحكمة الأوروبية يحق للحامل بموجبه أن تكذب عندما لا يشكل العمل المنشود أي خطر على صحة الأم والجنين. وقد نوهت وزيرة الشؤون الاجتماعية في مقاطعة بافاريا السيدة كريستا شتيفنس بهذا الحكم. فالسؤال عن

الحمل غير مسموح به ويُعد تمييزاً ضد المرأة. وبذلك تعطى المرأة الحق بالكذب من أجل الحصول على فرص العمل المتاحة للرجل نفسه. وعندما يأخذ رب العمل علماً بالحمل فيما بعد، لا يمكن إلغاء العقد، كما تؤكد الوزيرة شتيفنس.

فرص متكافئة والحقوق نفسها والحريات نفسها. إن الكذب والسر يعملان في خدمة الضعفاء والمغلوبين على أمرهم. إنهما سلاح من لا سلاح آخر له. فالكذب والسر يمكن أن يصونا الحياة ويحافظا على الحق في الحرية.

الكذب من أجل حماية الذات

يتيح الكذب للإنسان أن يتحرر ليس فقط من الحصار المطبق، بل يمنحه الحرية في تقديم نفسه للرأي العام بالشكل الذي يراه مناسباً. ولكي يلقى قبولاً من قبل الآخرين والعيش معهم بانسجام، ووقاية نفسه من التعديات غير المحمودة، يجب أن يكون قادراً على تحديد الصورة التي يظهر بها للآخرين، والانطباع الذي يريد أن يتركه لديهم.

ليس من الواجب أن تكون كل صفة ولا كل جانب من جوانب الشخصية، ولا كل ميل أو إعراض مرئياً في الوسط الذي يعيش فيه الإنسان. فمن أجل الوقاية الذاتية والفطنة يُفضَّل أن يبقي المرء على شيء ما لا يخرج للعلن؛ لأنه قد يؤدي في بعض الأحيان للإساءة إلى سمعته. فإذا ما عرف الآخرون عنا كل شيء مئة بالمئة لأصبحوا في أكثر الأحيان محتارين في أمرهم ومذهولين.

ويتضح من المثال الآتي الذي تقدمه «الزه ماري» التي تعيش مع طفليها 8 و10 سنوات في منطقة تابعة لـ أودنغالد في ألمانية، مدى ما يمكن لكذبة أن تلعبه في تأمين حياة تضمن بقاء الإنسان. ردت «الزه ماري» أول الأمر على إعلاننا «البحث عن الأسرار» كتابياً ثم هاتفياً:

مثال: كنت أول الأمر المسؤولة الوحيدة عن طفلين. لم يكن لي في يوم من الأيام زوج يقدم لي دعماً. فآباء أطفالي سرعان ما كانوا يولّون الأدبار هاربين. حاولت لمدة طويلة أن أعمل سكرتيرة لأضمن حياة تتقذنا من الهلاك، ولكن ذلك لم يدم طويلاً حيث فقدت عملي. كنت مضطربة وكتبت طلبات التوظيف واحداً إثر الآخر لكن دون جدوى. وانطلاقاً من شعور ما، لست أدري سره، لم أكلم أحداً حول البطالة التي أعانيها. وتبين فيما بعد أن ذلك كان تصرفاً ذكياً. تعرّفتُ مرةً في إحدى الحانات سيدةً، عندما منحت نفسي الحق في فسحة مسائية والذهاب إلى مدينة قريبة لتناول كأس من الشراب، وشكوت لها أمري. عندها حكت لي هذه السيدة أن في القسم الذي تعمل فيه إمكانية جيدة لكسب المال. كان عندها مصلحة خاصة لتقديم الخدمات، هكذا أطلقت عليها. هناك رجال أعمال وحيدون، وهؤلاء كثيرون في منطقتنا حيث يوجد عدد كبير من الشركات الكبرى على مقربة منا. تقوم هذه المرأة على تأمين مرافقة مسائية لهؤلاء الناس، بما في ذلك ممارسة الجنس. وعندما سمعت عن المبالغ التي يمكن تقاضيها لقاء ذلك قضيت ليلتين لم أذق فيهما طعم النوم. ثم بدأت العمل في هذه المصلحة لتقديم الخدمات. أخبرت جيراني وأطفالي وأصدقائي أنني اتفقت مع عدد من الأسر على تنظيف

بيوتهم لقاء أجر. وما من أحد يعلم طبيعة عملي الحقيقية. وهذا يعني أنني مضطرة للكذب، لكن ذلك لا يهمني كثيراً. فلدى طفليّ الآن ما يكفي من الطعام، ويمكنني أن أشتري لهما كل ما يحتاجانه. وهذا أهم شيء بالنسبة لي.

وكما في حياة «الزه ماري» يوجد في كل حياة مجال لا يتناسب -بشكل أو بآخر- مع المعايير الاجتماعية السائدة. فالوجه الذي يظهره المرء للآخرين ليس هو الحقيقة على الإطلاق. فهناك وجوه أخرى للشخصية لا تعرفها إلا فئة مختارة من المقربين، لا بل قد لا يعرفها أحد. والكذب يضمن لهذه المجالات السرية حق الوجود. إنه يساعدنا على التكيف الاجتماعي وعدم تعرضنا للتمييز أو دخولنا في العزلة. ليس لكل فرد في محيطنا الحق في الحصول على المعلومة التامة وغير المنقوصة والصحيحة كلياً. فللصراحة حدود تقف عندها عندما يمكن أن تشكل خطراً على جوهرنا الدفين في الأعماق. فإذا ما اقترب أحد من هذا الجوهر الدفين فنحن أمام خيارين: إما أن نقول له: «لا صلة لك بهذا الأمر» أو «لن أتحدث معك بهذا الأمر» أو يمكن أن نختار طريقاً أكثر وداً وقبولاً اجتماعياً، أي أن نكذب.

بالنسبة للفيلسوف ديفيد نايبرغ فمن المؤكد أن «التعايش العملي» الذي تطيب الحياة بوجوده في المجتمع الإنساني مع الآخرين، غير موجود على الإطلاق من دون الخداع والتمويه فلا توجد أي وصية أخلاقية، أو أمر أخلاقي، يُلزمنا بقول الحقيقة لكل إنسان. فالخداع والتمويه كما يقول نايبرغ «يدخلان في طبيعتنا الإنسانية. نعم. بل سأتقدم خطوة أخرى

إلى الأمام وأتبنى مقولة بأنه أحياناً ليس من الأمر السليم والأخلاقي أن نتخلى عن استخدام الخداع والتمويه».

الحق في الكذب

بالصدق وحده لن تسير أمورنا في الحياة على ما يرام. بكل صراحة أقول إننا نحتاج إلى الكذب. فمن دون الكذب، كما يقول فريدريش نيتشه، نكون معرضين بلا حماية «للحقيقة المنفرة». فالكذب يساعدنا في الإبقاء على المسافة المرغوبة بيننا وبين الآخرين ووقاية أنفسنا من جميع أنواع الإزعاجات والمضايقات. فلو أننا لا نتلفّظ إلا بالصدق لبقينا متروكين فقط للتجريح ونغص العيش، بل أيضاً مكشوفين كلياً للآخرين، لنظراتهم المستهزئة وأحكامهم واستنكارهم وفضولهم وضحكاتهم وعدم تفهمهم، ولما كان لدينا سلاح ندفع عنا به كل ذلك. والأسرار هي هذا السلاح؛ لأنها توفر الحماية في مجتمع ليس من الضروري أن يكون دائماً حسن النية.

وإذا ما تطلب الأمر منا إقامة سور أمني بيننا وبين من نخالطهم من البشر، فإننا نجد الفيلسوف المتمسك عادة بالقيم آرثر شوبنهاور يتحدث عن «الحق في الكذب»؛ إذ يُسمح للمرء أن يكذب عندما يكون من الضروري الحفاظ على سرية شيء ما «يمكن أن تؤدي معرفته إلى تعرضي لهجوم الآخرين».

هذا الحق في الكذب «الذي يستخدم عند كل سؤال لا يحق طرحه على الإطلاق حول بشؤوني الشخصية أو شؤون المصلحة التي أعمل فيها يمكن للإجابة عنه أو حتى مجرد رفضه بقولي «لن أجيب»، أن تثير

الشك بتعريضي للخطر. هنا يكون الكذب دفاعاً ضرورياً في وجه فضول من لا يعنيه الأمر». وكما يمكن السماح بإطلاق الكلاب المشاكسة ليلاً عندما يحاول من لا يحق لهم الاعتداء على الممتلكات، يمكن أيضاً للمرء أن يحول دون اقتراب من لا شأن لهم بأسلوب فضولي وملحاح للتضييق عليه، وذلك من خلال عدم التصريح بالحقيقة، كما يقول الفيلسوف.

وإذا ما جعل شوبنهاور الحق في الكذب يقتصر على حالة أن معرفة الحقيقة قد «تجعلني عرضة لهجوم الآخرين»، فإن الفيلسوف كريستيان توماسيوس Christian Thomasius يذهب خطوة أبعد إلى الأمام بقوله إن الكذب مسموح في حالة «لا يكون للآخر فيها الحق في معرفة الحقيقة». بذلك يضع توماسيوس حق تقرير المصير بكل وضوح قبل واجب الصدق. وهذا يعني: يحق لكل إنسان أن يسأل ما يريد، لكننا لسنا ملزمين بإعطائه الإجابة الحقيقية إن لم يكن له الحق بذلك. فإذا ما أردنا أن نحافظ على جوّنا الخاص بالكذب على الآخرين فإننا بذلك نخالف الوصية الثامنة التي تقول: «عليك ألا تعطي شهادة كاذبة ضد الأقربين»، لكننا نتصرف على نحو سليم في بعض الحالات بمفهوم مصلحتنا الذاتية.

على أي حال يجب أن نوازن فيما إذا كان فعلاً لا يجوز للآخر أن يطّلع على الحقيقة، أو فيما إذا كان في ذلك خرق لحقه في تقرير مصيره في حالة كتمان شيء عنه.

هل يعتدي المرء مثلاً على حق شريكه في تقرير مصيره عندما يجيب عل السؤال الذي يدور عادة بين الأزواج «بماذا تفكر الآن؟» بعبارة «لا أفكر بشيء» أو «لا أفكر بشيء محدد» بالرغم من أن ذلك مخالف للحقيقة؟

بالتأكيد لا. للشخص الذي وُجِّه إليه السؤال الحق في الاحتفاظ بأفكاره لنفسه، بغضّ النظر عن مدى براءتها أو إهانتها للسائل أو السائلة. ربما يريد المسؤول أن يقي السائل الفضولي من الحقيقة أو يقي نفسه؛ لأنه بقوله صادقاً: «لن أبوح لك بذلك» أو «هذا أمر لا يعنيك» سوف لن يجني إلا الشك والمزيد من الأسئلة الأخرى الحرجة.

«بماذا حلمت اليوم؟» هل يحق للسائل معرفة الفيلم الذي عرضته سينما الأحلام؟ إذا كان مضمونها لا ضرر منه فلِمَ لا؟ وإذا ما كانت ثقة المرء بالآخر كبيرة لا ضير في ذلك. لكن عندما يلحظ المرء بنفسه بأن هذا الحلم سوف يبوح بشيء عن ذاته أو أنه سوف يساء تفسيره من قبل علماء النفس الهواة، فلا يحق للسائل أن يكون له نصيب من فيلمنا الليلي.

هل يجب على الزوج، الذي يعود متأخراً -على غير عادته إلى البيت- أن يقول الحقيقة لزوجته من كل بد؟ هل يحق له أن يكذب أو يدّعي بأن الاجتماع قد طال بالرغم من أن حقيقة الأمر ليست كذلك؟ إن كان مرّ في طريقه على إحدى الحانات أو على تاجر سيارات لأخذ معلومات عن آخر موديل من السيارات التي يعشقها، يمكنه أن يصمت إن كان لديه الشعور بأن ذلك سوف يسبب له مشكلات بقولها: «ولهذا جعلتني أنتظرك على العشاء؟!» أو أنه لن يلقى تفهّماً كقولها: «لماذا تستعلم عن السيارات وأنت تعلم بالضبط بأنه لا طاقة لنا باقتناء سيارة؟».

ألا تخدش الزوجة حق زوجها بتقرير المصير عندما تجيب عن سؤاله: «هل كنتِ دائماً مخلصة لي؟» بكلمة «نعم» بالرغم من أن ذلك لا يُماشي

الحقيقة؟ بالتأكيد ليس كذلك عندما تعد علاقة عابرة، لا تشكل خطراً على الحياة الزوجية، مسألة خاصة بها ربما ساعدتها للخروج من حالة من الشك بالنفس كانت تؤرقها، أو حالات من الضجر والاستياء. بذلك تجرده من إمكانية المساومة واتخاذ موقف خاص به، ولا تعطي الحياة الزوجية فرصة لزيادة تفاعل هذه الأزمة.

إن من يذم الكذب بصورة مبدئية باعتباره غير أخلاقي، فإنما يبسط الأمر جداً. فللكذب، -شأنه شأن السر- وجهان: وجه بنّاء وآخر هدّام. وقبل أن نحكم على فرد بأنه كاذب يجب أن نختبر أياً من هذين الوجهين تتجلى فيه الكذبة. أين تكمن فائدة أو رداءة الكذبة؟ هكذا تساءل لودفيغ ماركوزه، وأجاب عن هذا التساؤل بالمعادلة الآتية: «أين تكمن فائدة المطرقة أصلاً؟ بإمكاني أن أستخدم المطرقة في دق مسمار في الجدار لتعليق خريطة، أو لتحطيم رأس إنسان. بالكذبة يمكنني أن أقدم لفتاة لم تعد صغيرة السن وهماً ساراً. وبالكذبة نفسها أن أدمر فتاة في مقتبل العمر. فالكذبة هي أداة تستخدم لأغراض شتى. والكذبة هي نتاج القوة ويمكنها أن تضرب في الاتجاهين. ولن نحصل على مقياس لتقويم الكذب في كل حالة من الحالات إلا عندما نطلق على الكذبة صفة لا أخلاقية إن كانت في مصلحة العنف وصفة أخلاقية إن كانت ضد العنف».

وبكلمة «عنف» هنا لا نقصد العنف بمعناه الحقيقي؛ إذ يمكن ممارسة العنف ضد إنسان عندما لا نقيم وزناً لعالمه الخاص. ويمكن أن يمارس عنف ضد إنسان آخر عندما نظن أن عليه البوح بالحقيقة مهما كلف ذلك دون أن يفكر بالنتائج التي قد تترتب على ذلك.

لماذا يُسمح لنا بالكذب؟

أحياناً هناك أسباب وجيهة لكتمان الحقيقة. وهذا يكون في حال كانت الحقيقة تجرح شعور إنسان آخر دون أن تكون هناك ضرورة لذلك. أو عندما نرى ألا حق لشخص آخر في صدقنا واستقامتنا. الكذب ضروري ومفيد من أجل مراعاة الشعور: الكذب من أجل المحافظة على الذات والكذب لحماية الذات. لكنه ضار عندما يخرق حق تقرير إنسان آخر لمصيره، ويقف حائلاً دون تقدمه وتطوره.

obeikan.com